

داروين والتفكير الجديد

« أنت لا تعنى إلا بالصيد والكلاب ، وإمساك الجرذان ، وسوف تكون عاراً على نفسك وعلى عائلتك . »

هذه هي الكلمات التي تلقاها داروين من أبيه في وقت كان يلوح لأي إنسان يتأمل داروين أنها صحيحة ، وأن هذا الشاب قد خاب الحيلة التامة . فقد تسكع في دراسات مختلفة ، ولكنه لم يستقر على واحدة منها . فقد التحق بكلية الدين ثم تركها ، والتحق بكلية الطب ثم تركها . وفي غضون ذلك كان يلعب ، أو على الأقل كان يبدو كأنه يلعب . يخرج إلى الحقول ويجمع النباتات ، ويصيد الحشرات ويقارن بين النباتات . ويفكر تفكيراً سريعاً كأنه يتأمر على الكون كله ، كي يغيره أو يغير البصيرة البشرية فيه .

والآن بعد أكثر من مائة سنة من هذه الكلمات القاسية التي قالها أبوه عنه لا يعدّ داروين عاراً على عائلته بل هو فخر أمته يتباهى به التاريخ الإنجليزي . وبعد نحو خمسين سنة من هذا التوبيخ الأبوي تأمل داروين حياته الماضية ، وبلغ ما أمته من الخدمة في التوجيه الذهني للعالم فقال : « أظن أن أبي قد قسا على بعض القسوة » .

ومات داروين في عام ١٨٨٢ بعد كفاح ثقافي طويل . ونحن الآن بعد وفاته بخمس وستين سنة ، نستطيع أن نقول إنه كسبنا فهماً جديداً للطبيعة والكون والانسان ، وزودنا بمنهج للتفكير لم نكن نعرفه من قبل . فان كتابه « أصل الأنواع » الذي أخرجه في عام ١٨٥٩ حمل إلى القراء شيئين : أولها معارف تكاد تكون حقائق عن أصل الأنواع في الحيوان والنبات ، وأنها جميعها ترجع إلى أصل واحد أو أصول قليلة . وثانيهما منهج للدراسة هو أن الاستقرار لا يعرف في الطبيعة ، وأن الانسان والحيوان والنبات في تغير مستمر .

ونحن الآن لا نبالي الحقائق أو المعارف التي شرحها داروين . ولكننا قد اتجهنا الوجهة التي عينها لنا . فنحن نفكر في التطور ، ونفكر متطورين ، وأصبح التطور حقيقة علمية تقيسها بالمليمتر والميلجرام في الحيوان والنبات . كما أصبح أيضاً مذهباً دينياً ، أو مبدأ أخلاقياً عند المثقفين ، وانفسح به التاريخ البشري آفاقاً إلى ملايين السنين ، بل مئات الملايين خلف البشر . وبعد البشر .

لقد قيل إن جاليل حط الانسان من عليائه ، حين أعلن أن الأرض ليست مركز الكون ، وأنها كوكب صغير يدور حول الشمس . ولعل الشمس أيضاً نجم صغير لا يختلف من ملايين النجوم التي نراها كل ليلة في السماء . ولكن داروين رفع الانسان إلى هذه العلياء من جديد ، وأثبت انه لم يكن عالياً فسقط ، وإنما هو كان ساقطاً يعيش على حضيض الطبيعة حيواناً كسائر الحيوانات والحشرات ، ثم ارتفع . وبهذه الكرامة الجديدة انتقل من أسر القدر ، وأحس أنه تاج التطور ، وأن له الحق في تدبير هذا العالم ، وفي تعيين السلالات القادمة ، بل ماذا أقول ؟ في إيجاد الأنواع البشرية الجديدة .

ومع ذلك لا أعتقد أن داروين نفسه ، كان يقدر الطاقة الكامنة في نظريته . ولا ينتقص هذا من عظمته ، فان تفكيرنا الشخصي يسير بقوات اجتماعية ، لا نكاد نبصر بها أو نتعمق أصولها . ذلك أننا نفكر بجوافز من العواطف التي نكتسبها من المجتمع ، بما يفرضه علينا من القيم والاوزان ، وما يرسمه لنا من المطامع والآمال . والمجتمع يطالبنا باستجابات مختلفة تستحيل في كياننا النفسى إلى عادات عاطفية لا نستطيع الخروج منها ؛ فنفكر في منهج خاص هو ثمرة هذا التوجيه الاجتماعى الذى لا نحسه لأنه لا يرتفع إلى وجداننا وتعلقلنا .

ولذلك نستطيع أن نقول إن نظرية داروين وجدت الحافز الأول على التفكير فيها من المجتمع الذى عاش فيه داروين . ذلك أن داروين قضى إلى زهرة حياته إلى نضج الشباب وإيناع الكهولة فيما بين ١٨٣٠ و ١٨٦٠ . وكان عمره وقتئذ بين العشرين والخمسين ، وكانت إنجلترا فى تلك السنين ترغى وتزبد بالحركة الصناعية الجديدة ؛ فالمصانع تحتشد بالعمال من الرجال والنساء

والصبيان ، والثروات تنمو ، والمزاومة على أقصاها ، وإيجيل النجاح يدرس ، ويعبد والسياسة تخدم الاقتصاد وتضرب الأمم النائية وتؤسس الأسواق في المستعمرات وأصبحت انجلترا سيدة البحار لأنها احتاجت إلى أكبر أسطول يحمي مستعمراتها وأسواقها التي تباع فيها مصنوعاتها الفائضة . وعاش داروين في تنازع البقاء هذا الذي لا يفتر في لنكشير وغير لنكشير من الأقاليم الصناعية في انجلترا .

وفي تلك السنين أيضاً قرأ كتاباً أحبه وتعلق به لأنه وجد في نفسه الاستجابة لنظرياته بما تكون له من عواطف أحدثها الوسط الصناعي الانجليزي ، هو كتاب القسيس مالتوس عن السكان . فان هذا القسيس كان من المحافظين الانجليز الذين يكرهون العامة ، ولا يرون فيهم سوى غوغاء . فلما انفجرت الثورة الفرنسية واستولى بها الشعب على حقوق السادة من الملوك والعطاء ثم أعلن رجالها مبادئ الاخاء والمساواة والحرية ، فكر مالتوس كثيراً بحافز من عواطفه المحافظة ، فأخرج كتابه عن السكان . وكان المغزى الذي قصد إليه أن هذه الآمال في الاخاء والمساواة والحرية لن تتحقق لأن الدنيا لا تكفي الناس الذين يتوالدون على نظام تضاعفى ٢ و ٤ و ٨ و ١٦ الخ . ولكن المحصولات لا تنتج إلا على نظام حسابى ١ و ٢ و ٣ و ٤ و ٥ الخ . فاذا عاش الناس بلا مرض أو حرب أو حرمان لم تكفهم المحصولات . وإذن فالمرض والحرب والحرمان رحمة بالناس أو ضرورة لهم . وتأمل داروين هذا الكتاب الذى ألفه مالتوس عن المجتمع البشرى فساءل : لم لا ينطبق هذا الكلام على المجتمع النباتى والحيوانى فى الطبيعة ؟ فان الطعام لا يكفى جميع الأحياء التى تتوالد أو تتكاثر بالألوف ، فهى يجب ، كى تعيش ، أن يزاح بعضها بعضاً ، فتكون الحرب بينها أى تنازع البقاء ، كما فى لنكشير ومصانعها تماماً .

وفى ١٨٣١ أنقذت الحكومة البريطانية سفينة البيجل كى تطوف حول العالم وتسير الأعماق وتدرس الشواطئ وتقيس الأبعاد . ولكن لماذا عمدت الحكومة البريطانية وحدها دون سائر الحكومات إلى الاهتمام بهذا الموضوع ؟ ما هى العاطفة الحافزة إلى هذه الدراسة التى لم تفكر فيها ألمانيا أو روسيا أو إيطاليا ؟ العاطفة الحافزة اجتماعية أيضاً . وذلك أن الحكومة البريطانية فى تلك السنين كانت تخدم الصناعة البريطانية ، لأن السياسة على الدوام تسير خلف

الاقتصاد . وكانت أسواق العالم وفقاً على المصنوعات الانجليزية ؛ لأن الحركة الصناعية الانجليزية سبقت الحركات الأخرى في جميع الأمم . فمن هنا كان الاهتمام بالبحار والملاحة والأقطار النائية . ومن هنا أيضاً كانت الفرصة لداروين في أن يلتحق بالسفينة « بيجل » كي يدرس الحيوان والنبات . ولم يكن داروين جديداً في هذا البحث : أصل الأنواع ؛ فان لامارك الفرنسي سبقه إليه ، وهو صاحب القول بأن عنق الزرافة قد طال لأنها بالمرانة التي وزنت جيلا بعد الجيل قد اشرأبت وسعت للوصول إلى العصون العليا في الأشجار . فكأن ما يكسبه الحيوان بجهد من صفات يورث جيلا بعد جيل . بل إن جد داروين قد بحث هذا الموضوع . فكانت النظرية « في الهواء » تحتاج إلى من يرتب أصولها وفروعها ويعلل مظاهرها .

كان داروين شابا في الثالثة والعشرين حين شرع في رحلته على البيجل . فلما وصل إلى أمريكا الجنوبية ، وجد حيوانها ونباتها يختلفان عما هما في القارات القديمة . ثم لما وصل إلى الجزر المنعزلة غرب أمريكا الجنوبية وجد أن انعزال الجزيرة يؤدي إلى انعزال الحيوان . فتكون له أشكاله التي ينفرد بها من الأشكال العامة على القارات .

وإلى هنا يكاد يتوهم القارئ أنه ليس هناك أي فضل لداروين في تحليل النظرية . فقد سبقه إليها جده كما سبقه إليها لامارك الفرنسي . ثم هناك الظروف الأخرى : مالتوس وقلة الانتاج الغذائى إزاء تضاعف السكان ، ثم تنازع البقاء وبقاء الأصلح وفناء الضعيف في المزاومة العنيفة في لانكشير حيث الحركة الصناعية في عنقوانها .

ولكن لا ! لأننا مع التسليم بأن الوسط الاجتماعى أو البيئة الثقافية ، في أوسع معانيها ، حين تشمل المعيشة والاتجاه والعادات والعواطف ، هي الحافز للتفكير ، فاننا مع ذلك يجب ألا نغفل الشخصية ؛ إذ لو لم يكن داروين ذكيا لما فكر في هذا الموضوع الخطير ، ولما جعله هدفه في الحياة .

لقد قال داروين عن نفسه : « إن الحقائق تضطرنى إلى الاعتراف بأن عقلى لم يخلق للتفكير . »

وقد ظلم داروين نفسه بهذه الكلمات . ولكن الحقيقة أنه لم يعرف نفسه . لأن الواقع أنه لا يقول هذه الكلمات إلا رجل مفكر قد أسرف في التفكير وعنى

العناية الكبرى بغرلة الحقائق من المعارف ، وعرف الصعوبة الكبرى في هذا الجهد . ولو أنه لم يكن يجهد كما قال هذه الكلمات إذ أنها ما كانت لتخطر في باله .

الحقيقة الواضحة من حياة داروين أنه احترف التفكير ، وأنه كان مريضاً أو ممرضاً في نفسه حزاة قديمة هي جرح الكرامة ، هذا الجرح الذي أحدثه أبوه وغيره فيه كما نرى مثلاً من وصف أبيه له بأنه سوف يكون عاراً لعائلته . فقد كان لا ينام في الليل إلا بعد أرق الساعات . وكان في هذه الساعات يفكر ويؤلف . فاذا جاء النهار كتب كلماته القليلة ، ثم يبقى سائر نهاره مريضاً . ومرضه هو هذا المرض النفسى الذى يخترعه النيوروزى ويعيش به ويستقر عليه ، كأنه يقول : طلبتم منى النجاح والتفوق ، وكيف أستطيع هذا وأنا مريض ؟ مرض يصون الكرامة المحروحة (أنت عار لعائلتك) وفي الوقت نفسه يهبى الفرصة للتفكير في حضانة ليلية يسميها الأصحاء أرقاً . ولو أن داروين نجح وصار قسيساً أو طبيباً كما كان يشتهى أبوه لكسب العالم قسيساً أو طبيباً يمارس حرفته ويكسب منها . ولكن العالم كان يخسر عندئذ هذه العبقرية المريضة التى زعزعت الثقافة من أساسها ، بل زلزلتها وعينت أهدافاً جديدة للإنسان . كان داروين يكرر كلمة مألوفة بين أصدقائه هي « معدنى ملعونة » والترجمة السيكولوجية لهذه الكلمة هي : أريد أن أفعد وأتكاسل وأفكر ولا يساعدنى على هذه الحال إلا معدة ملعونة تزكىنى وتسوغ لى الكسل والتفكير والتأليف . وهذا الكسل من أعجب صفات داروين ، وهو صفة المريض النيوروزى الذى يكره النشاط ويرفض المعالجة لأى عمل لأنه يخشى النقص . أى لأنه يخشى أن يقصر عن التمام . فقد بقى داروين نحو ثلاثين سنة وهو يفكر فى التطور ، ولكنه لا يخرج كتاباً عنه ولا يكتب مقالا . ثم حدث حادث أزعجه فانتفض منه ، هو أن ولاس كان فى بعض الجزر التى تقع فى الجنوب الشرقى من آسيا يجمع الأزهار والحشرات ويحفظها ويبيع بها إلى الجمعيات العلمية . وكان مشغولاً بالموضوع نفسه أى التطور ، وكان يعرف أن داروين مشغول به أيضاً . فأرسل إليه رسالة علمية يشرح فيها رأيه فى هذا الموضوع . وصعق داروين إذ وجد أن ولاس قد سقه إلى تعليل التطور بأن الطعام قليل فى الطبيعة ، وأن التوالد كثير بين أنواع الحيوان والنبات ، فلا بد أن يكون

هناك تزامم أى مسابقة من أجل الطعام . وفى هذا التزامم أو المسابقة لا يبقى غير الأفوى الأصلى للبقاء .

وسارع داروين إلى إبلاغ الهيئات العلمية فى انجلترا عن رسالة ولاس . وشرع هو أيضاً يؤلف كتابه « أصل الأنواع » . ونستطيع أن نتخيل داروين فى حزنه ونزاهته معاً . ولكن وولاس بعد ذلك بسنين اعترف بأن العالم كسب ولم يخسر بتزعم داروين لهذه النظرية ؛ لأنه كان أوفى منه معرفة وأنصح بياناً وأدق منطقاً .

وأخرج داروين كتابه « أصل الأنواع » فى ١٨٥٩ فتغيرت الرؤية والرؤيا البشرىتان .

وكثير من النظريات التى غيرت التفكير البشرى تبدو غاية فى السهولة والبساطة ، حتى لىتساءل الناس : كيف جهل السالفون هذه النظرية على وضوحها ؟

فان داروين يتحدث عن الحمام والكلاب وغيرها مما يربيه الناس وكيف استطاعوا أن يخلقوا العشرات والمئات من السلالات الجديدة . وما استطاعه الانسان فى مئات السنين القليلة قد استطاعته ، وأكثر منه ، الطبيعة فى ملايين السنين الماضىة ، حتى أخرجت الأنواع فضلاً عن السلالات . فهناك فى الغابات والبحار والجبال والسهول إنتاج محدود من الطعام ، ولكن هناك توالداً يتضاعف بين الحيوان والنبات ، ولا يمكن أن يكفى الطعام هذه الملايين بل ملايين الملايين من النبات والطعام . فلا بد إذن من أن تتنازع الأفراد لأجل البقاء أى لأجل الحصول على الطعام . وقد يكون السبب للتفوق فى هذا التنازع ثم البقاء خفياً ، هو كما فى النفس الأخير فى صراع يدوم الساعات . أو فى القدرة على الجوع أو العطش ، أو فى طرق الحماية للنسل ، أو فى القدرة على التطفل ، أو فى الجراءة والبطش .

وما دام كل فرد يولد مختلفاً عن الآخر فى الحيوان والنبات ، فان هذا الاختلاف ينطوى بلا شك على ميزة أو عجز . فهو يساعده فى الحال الأولى على البقاء والانتصار فى معركة الحياة . وهو يهيب له الهزيمة فى الحال الثانية . ولا نعرف الأسباب لهذا الاختلاف ، ولكننا نشاهده ونسلم به . ولذلك لا بد أن يستمر التغيير جيلاً بعد جيل . فاذا تراكت التغييرات أحدثت السلالات

الجديدة ، وإذا زاد الاختلاف بين السلالات ظهرت الأنواع الجديدة .
وعلى هذا يجب أن نسلم بأن الأحياء ، نباتاً وحيواناً ، ليست الآن كما كانت
قبل مليون أو مائة مليون سنة ؛ لأنها دائمة التغير والتطور . وليس الاستقرار
والثبات طبيعة الأحياء ؛ لأن التغير والتطور هما طبيعتها . ونستطيع أن نستنتج
أنه ما دام لنا تاريخ ماضٍ في التطور فسوف يكون لنا تاريخ قادم أيضاً تتغير
فيه الأحياء .

وهذا هو المغزى الخطير الذى انتهى إليه قراء داروين ، وهو أن الحياة
في بوتقة لم تتجمد قط ، وأن البوتقة لا تزال تصهر وتخرج عناصرها ومركباتها .
وهذا هو التوجيه الجديد الذى سدد داروين عقولنا إليه . ونحن في بداية هذا
التوجيه الذى يخشى كثير منا مغزاه لأنه يحمل في طياته مشروعات بشرية
خطيرة .

لقد عالج داروين تطور الأحياء ، وحاول تعليل التطور ونجح إلى حد ما في
هذا التعليل ، ولكنه لم ينجح كل النجاح . وذلك لأن عواطفه الاجتماعية التى
اكتسبها من المزاومة الصناعية التجارية في لنكشير ، ومن كفاح الامبراطورية
لخطف الأسواق وإذلال الأمم ، هذه العواطف هى التى حملته على أن يكبر
من شأن التنازع ، تنازع البقاء ، وحال بينه وبين رؤية التعاون في الطبيعة .
لأن الواقع أن البقاء عن طريق التعاون بين الحيوان والنبات أكبر وأوسع من
البقاء عن طريق التنازع .

ونحن نعرف الآن كثيراً أى أكثر مما كان يعرف داروين . ولكن لداروين
فضل التوجيه وتعيين الخطط للبحث ، وأنه زودنا برؤيا بشرية جديدة . فقد
نقلت نظرية التطور من الأحياء في الطبيعة إلى الناس في المجتمع ، وصار من
المألوف أن نحد دراسات منظمة عن الأخلاق والأديان وفق النظرية التطورية
ما كنا لئراها لولا داروين . وانبسطت للبشر آمال في المستقبل ، وتغير معنى
الارتقاء البشرى لأننا قلنا هذا المعنى من وسط الانسان إلى الانسان نفسه .
بل أصبح التطور فنا تمارسه في إيجاد سلالات جديدة من القطن أو القمح أو
الفاكهة . وقد اجترأ هتلر وأعوانه على أن يفكروا في سلالات بشرية جديدة .